مقدمة المؤلف

هذا الكتاب هو فى الواقع مجموعة من المحاضرات الدراسية أُلقيتْ مرتين فى عامى ١٣٧٣/١٣٧٤هـ.ش(*) (١٩٩٤/١٩٩٥م) لطلاب الدراسات العليا بكلية العلوم السياسية، جامعة التربية (فى طهران)، وكانت تحت عنوان (دراسة فى الفكر السياسى للمسلمين). ولا شك فى أن الفكر السياسى للمسلمين لا ينحصر فقط فى الموضوعات التى حواها هذا الكتاب، بالإضافة إلى أن ما جاء به ليس هو نهاية المطاف حول الموضوع. ولكنه خطوة أولى نحو طريق طويل يجب على الباحثين والعلماء أن يقطعوه بكل همة وإقدام، حتى يصلوا إلى الآفاق البعيدة للحياة السياسية الإسلامية والسياسة العالمية.

وفى البداية يجب أن أعرض عدداً من الحقائق:

١ ـ أن هنالك أمراً مؤكداً فى تاريخ الإسلام لا يقبل الشك. وهو أن رسول الإسلام العظيم (صلوات الله وسلامه عليه) قد استطاع تأسيس نظام سياسى ـ علاوة على بيانه للوحى الإلهى ـ بعد ثلاث عشرة سنة على نزول الوحى الإلهى، كما استطاع تبديل اسم (يثرب) إلى (مدينة النبى) ﷺ . وأنار العالم شرقه وغربه ـ من بعده ـ فى ظل الخلافة الإسلامية وتحت إمارة المسلمين، وذلك برغم كثير من التباينات بين الحاكمين وأساليب حكمهم. وأصبحت الخلافة الإسلامية من أعظم السلطات السياسية العالمية البناءة فى تلك الآونة، كما أصبحت الحضارة الإسلامية الذائعة الصيت من ألمع الحضارات التاريخية.

وفى رأى كاتب هذه السطور أنه إذا ما نحينا جانباً الخلافات الكلامية والفرق عند المسلمين، وألقينا نظرة فاحصة على المجتمع والتاريخ؛ فإننا نستطيع أن نُقسّم الواقع السياسى؛ وكذلك الفكر السياسى فى العالم الإسلامى إلى ثلاث مراحل متمايزة:

الأولى: المرحلة التى بدأت بتأسيس مدينة النبى، وانتهت بنهاية الفترة المعروفة باسم الخلافة الراشدة. ونستطيع القول بأن بداية هذه المرحلة وكذلك نهايتها، تمتعا بعظمة خاصة، مع بروز اختلافات واضحة.

ومن أجل الوقوف على الهوية السياسية الإسلامية، يجب على العلماء والمحققين أن ينظروا بعمق للأحداث الجارية فى تلك الحقبة من العشرات من السنين، بالإضافة إلى ما يوضحه القرآن الكريم والسُّنة المدونة، التى هى نبع الوضوح والأصل فى دراسة التربية وموازينها.

الثانية: المرحلة الطويلة التى استمرت منذ زمن استبدال الخلافة الإسلامية بالمُلك الاستبدادى، وحتى زمن اتصال العالم الإسلامى بالمدنية الغربية.

يتكفل هذا الكتاب بتوضيح الأفكار السياسية للمسلمين من خلال استعراض طولى وعميق للأحداث السياسية خلال تلك المرحلة الطويلة. وهو يزعم أنه برغم جميع التباينات التى من الممكن أن تكون بين الحكومات وبين النظم السياسية فى سائر الأمصار الإسلامية فى مراحلها المختلفة، فإنه هناك عامل مشترك واحد فى الأزمان والأماكن المختلفة، وهو عامل الاستبداد وارتكاز السلطات السياسية على القوة والتزوير، بعبارة أخرى، أن روح السياسة وملامحها تنحصر فى الفرد الحاكم، وفى أنه لم يسود طوال هذه الأزمان سوى (القهر)[1].

الثالثة: المرحلة التى حياتنا اليوم امتداد لها، يعنى منذ بداية النظرية الاستعمارية التخريبية التى مازالت مستمرة حتى الآن.

فى هذه المرحلة بدأ تشكل الانبهار بالواقع السياسى الغربى، وكذلك تشكل - فى آخرها - الفكر السياسى الاستبدادى بصورة جديدة اختلفت عما كان فى السابق، على نحو كان يصعب فهمه على الناس، ويصعب فهم آثاره على حياتهم.

فى هذه المرحلة وخلافًا للمرحلة الطويلة السابقة عليها، كان الاستبداد لا يعتمد على الجيوش المدججة بالسلاح للأمة الغالبة (مفهوم الاحتلال)؛ ولا على التعصب القبلى

والعشائرى للقوى المهيمنة؛ بل كان يعتمد على نفوذه خارج حدوده القومية بمفهوم يختلف عن مفهوم الاستعمار.

أما فى ميدان الفكر، فمع دخول مفاهيم جديدة ورؤى على الساحة - خاصة فى المجال السياسى - والتى اشتهرت بـ (العلوم الإنسانية) تصارعت عقول المسلمين مع الرؤية الجديدة التى كانت تتناسب مع أوضاع الناس وأحوالهم فى البلاد الغربية، وكذلك مع مقدّراتهم التاريخية والتى كانت بدورها غير مسبوقة فى سنن المسلمين أو فى سيرتهم الفكرية والعملية، ونتج عن هذا اضطرابات فكرية كثيرة، شكلت مصيرنا فى النهاية وأغرقته فى بحور الاختلافات.

ولا يفوتنى الإشارة إلى اصطدام الغرب بالعالم الإسلامى أثناء الحروب الصليبية. فى هذه المرحلة كانت الحضارة الإسلامية قد بدأت تتهاوى من قمتها الشاهقة إلى حضيضها السفلى، وكان العالم الغربى يعانى من نوع من الانحطاط المزمن، ومن الواضح أن هذا الصدام كان أكثر تأثيراً فى إيقاظ الغربيين، ونتج عنه حركتان مهمتان هما: النهضة Renaissance والحركة الإصلاحية Reformation، ومن خلالهما انتشرت الحضارة المفعمة بهيمنة الغرب.

عرف الغربيون عن طريق الاتصال بالشرق أسلوباً آخر من الحياة والمدنية والأدب، وكان جديداً عليهم تماماً، وقد وصلوا إليه عن طريق فكر المسلمين، خاصة فى الأندلس، وفى الواقع؛ فإنه بإدراك الغرب لهذه المعرفة، وبعد تأمل جادّ فى حاله وواقعه؛ توصل - وبرويّة - إلى أصول الفكر الجديد دون تهديد من الخارج[٢] من قوى سلطوية أو قوى عالمية، ومهد الطريق إلى المستقبل متخذاً وجه الحضارة الغربية. وكانت الصراعات الداخلية تدور بين حرّاس الأصول والتقاليد (فكر المدرسة الكنسية) وبين المتنورين، وقد كان النصر فى هذا الصراع حليفاً لأطروحات المتنورين التى كانت تدور فى مجال الفكر وحول الطبقة المدنية المتوسطة (البرجوازية)، وفى النهاية تربعت أطروحات المتنورين على عرش الحكم فى الفكر والعمل وفى العقول والحياة الغربية - وعلى الأقل - فى مجال السياسة، وأصبحت بمعناها الأوسع فى رأيى هى نظرية الدنيوية Secular-ism (أو عدم التعلق بالدين)، وهى النفعية Utililarianism.

ولكن فى الصدام الأخير للمسلمين (وبشكل عام الشرقيين بالمعنى السياسى والاجتماعى الكلمة) مع الغربيين - ولأسباب ليس هنا مكان شرحها - فإن ما ألم بهم هو اضطراب فى الفكر وفى العلاقات؛ وتخلف فى ساحة العمل.

فى هذا الخضم، كانت توجد دائمًا اللجاجة والجدل الفكرى والعملى على الساحة السياسية، ولم يُقصّر رواد إحياء الفكر الدينى والقومى (بالنظر إلى المستقبل) وكذلك المصلحون وحتى الثوريون، ومازال هذا الجدل مستمرًا حتى الآن. **ولكن كانت هناك آفتان عظيمتان عندنا نحن الشرقيين، وهما إما الإعجاب الشديد، أو النفور الشديد، وكانا هما المانع الأساسى من المعرفة الحقيقية للحضارة الغربية، باعتبار أنها أعظم الأحداث الواقعية فى المرحلة الأخيرة من حياة البشر، وأصبح المجددون والمصلحون - سواء زادت درجة إعجابهم أو نفورهم، أو قلت - أسرى الإفراط والتفريط فى ميدان الجدل بين الأصولية والتجديد، فحادوا عن الطريق المستقيم، وأصبح هذا الجهل هو بلاءنا العظيم الآن.**

وكما قلت فى موضع سابق، فإن التجربة الإيرانية الحالية من الممكن أن تكون بداية مرحلة جديدة من أجل التحرر من هذا الاضطراب الفكرى والعملى، بالطريقة التى نحاول الاجتهاد بها كى نصل إلى المعرفة الكافية التى تؤهلنا لنقد الحضارة الغربية (وليس بالضرورة إنكارها تمامًا) وأيضًا نقد التراث (وليس تجاهله تمامًا). وإننى لأرى وراء هذا الضجيج وتلك الاهتمامات، إشارات بارزة تدلل على تحرك العلماء وتحررهم سعيًا لإدراك عللهم.

يحتاج بحث أوضاع المسلمين وأحوالهم فى مجال السياسة فى المرحلة الأخيرة إلى مجهودات كبيرة، وللكاتب فى هذا الخصوص تأملات قليلة وملاحظات عرضها من قبل، وكان عازمًا بعد بحثه السابق (بحث فى الفكر السياسى الغربى - الذى أورده فى كتاب «من دنيا المدينة إلى مدينة الدنيا») وبحثه الثانى، هذا الكتاب، على الاضطلاع بتحليل وتوضيح الوضع السياسى والفكر السياسى فى العصر الحديث، ولكن شاءت الأقدار الإلهية أن تحوله من آفاق السعادة وعطر الفكر السياسى، إلى وادٍ ملىء بالأهوال والأخطار ورعب العمل السياسى، وهكذا انشغلت فى هذا الوادى حتى عن إيجاد وقت قصير لكتابة مقدمة بسيطة على كتابى، وطال انتظارى لأكثر من عامين.

* * *

٢ ـ فى هذا الكتاب، وفى إطار تحديد ملامح الواقع الروحى والدنيوى للمسلمين؛ عمدت إلى شرح الآراء السياسية لعدد من الفلاسفة والعلماء والساسة فى العالم الإسلامى، بداية من الفارابى ونهاية بابن خلدون.

لو تيسر لأحد البحث فى مجال الفكر والعمل السياسى قبل الفارابى وبعد ابن خلدون ـ ولكن وفق منهج سيتعرف عليه القراء ضمن البحث إجمالا، واستنباطًا لأفكار وأقوال عظماء تم تناولهم ـ فإنه لن يستطيع العثور على أفكار جديدة، ويرجع هذا فى الواقع لتكرار كلام هؤلاء العظماء؛ أو للتلفيق والتوفيق فيما بينه.

وأبادر بالقول بأنه لابد من الاعتراف بأن شرح الفكر السياسى لـ(إخوان الصفا) ينقص عملى هنا، ويوسمه بتقصير كبير، فقد هدفت هذه الجماعة من محاولاتها الفكرية إلى التأثير فى فكر المسلمين وعملهم، ولكن للأسف لم تسمح مشاغلى الجمة أن أجمع ملاحظاتى المبعثرة الخاصة بهذه الجماعة؛ أو أن أنظمها وأدونها وأعرضها فى قسم من هذا الكتاب.

٣ ـ وهنا نطرح سؤالا: لماذا مع وجود شروح رائعة للفلسفة فى العالم الإسلامى؛ ووجود إبداعات وتجديدات على هذه الساحة؛ وتقسيم الفلسفة إلى نظرية وعملية، وهو تقسيم من ابتكار الفلاسفة المسلمين ودليل على وضوح الفكر الفلسفى، لماذا غفلت الفلسفة العملية ـ خاصة فى أكثر أقسامها تخصصًا ـ عن الاقتصاد والسياسة؟

من الجائز أن نظن أن الغلبة فى العالم الإسلامى كانت للدين، وأن الدين كان على قمة شئون الحياة الإنسانية، وذلك لأن الإنسان المتدين يرى جذوره فى الدنيا وفق رؤية خاصة، هى أنه إليها جاء ومنها يخرج؛ ونتيجة لهذا كان المبدأ والمعاد هو محور فكره وتأمله.

ولكن أليس الطريق الذى يجب عليه أن يمضى فيه من المبدأ إلى المعاد هو طريق يعبره فى الأرض وبين المجتمع؟ وهل من الممكن بدون إعمال العقل فى أمر المعاش أن يتأمل بصدق ويتدبر فى أمر المبدأ والمعاد؟

كما أنه من الجائز أن نظن أن شريعة الإسلام وفقهه ـ خلافا للمسيحية ـ غنية ومثمرة بذلك الخصوص؛ لذا فإن المسلمين لم يحتاجوا إلى التدبر فى أمور السياسة مادامت تكفلت نصوص دينهم بشرح سلوك الفرد وكذلك الروابط بين الأفراد

وبعضهم البعض، فإذا ما كان الأمر كذلك، فأى احتياج بعد هذا للتفكير فى الأمور السياسية؟!

لا شك فى أن هذا التفكير لم يكن سليمًا، وذلك لأن:

أولا: إن تغلغل نصوص الإسلام فى الحياة، علامة على اهتمام أكثر جوانب هذا الدين بأمر الحياة والمعيشة فى هذه الدنيا، فالفقه قسم يأخذ قضايا الحياة بجدية ملموسة، وكما يُعبر الغزالى: إن الفقه هو أكثر أقسام المعرفة الدينية ارتباطًا بالأرض والدنيا. والأمر كذلك، فلا يمكن أن يختلف الدين من حيث ماهية السياسة والعلاقات الفردية والجماعية عن أمور الفلسفة.

ثانيًا: كما أن الفقيه إنسان يُعمل العقل، فهو حينما يرتبط عند رجوعه إلى مصادر الاستنباط بأى من النظريات الفلسفية أو العرفانية أو الاجتماعية، فإن فقهه سوف يتأثر بذلك (وهذه الحقيقة لا تتنافى مع وجود أمور ثابتة فى الفقه الإسلامى)، إن التفكير الفلسفى الخاص بالسياسة يسبق عمليات الاستنباط الفقهى، وبدون هذا السبق سيكون الفقه جافًا، ضيق الأفق.

وقد ظن أيضًا البعض أن روح الثقافة والأدب للكثير من المسلمين، ومن بينهم الإيرانيون، قبل أن تكون فلسفية، روح عرفانية صوفية، وحتى إعمال العقل فى أمر المبدأ والمعاد أيضًا يقع تحت تأثير التصوف أيضًا، ويَعُد مؤسس الفلسفة الإسلامية، التصوف، أو على الأقل اتجاهاته المبالغ فيها، وجهًا لأفكار المدن المنحرفة؛ أى تلك الأفكار التى تَعُد الانسحاب من الحياة العامة والدنيوية ومن بينها السياسة المدنية، أمرًا ضروريًا لبلوغ الوجود الحقيقى.

إن هذه القضية صحيحة من جانب، لأن التفكير الصوفى إذا لم ينته إلى اعتزال الدنيا، فعلى الأقل ينتهى إلى الزهد فيها، أما الأمر فى السياسة فيستلزم أخذ الدنيا بجدية والاهتمام بالحياة فيها، وفى رأيى أن الاستدلال بأن (التصوف كان سببًا فى موت الفكر السياسى فى العالم الإسلامى) قد استبدل العلة بالمعلول (السبب بالمسبب) وذلك لأن السبب الذى أفرغ العالم الإسلامى من الفكر السياسى(**)، قد ساق عددًا كبيرًا من النخبة إلى وادى التصوف الخيالى.

* * *

٤ ـ يهدف هذا الكتاب إلى شرح الفكر السياسى للمسلمين وتوضيحه خلال اثنى عشر قرنًا، وقد جاء ترتيب القضايا حول نظرية واحدة ـ قليلا ما تأتى بالصورة التى جاءت فى هذا الكتاب ـ لم نجد مثلها فى كتاب آخر. والنظرية التى يطرحها البحث هى أن العالم الإسلامى والمسلمين كان يحكمهم الاستبداد بعد عصر الخلافة الراشدة، وأن الاستبداد والقهر هما أسوأ الصور السياسية عند الفلاسفة؛ المسلمين منهم وغير المسلمين.

على كل حال، كان الاستبداد هو الصورة السياسية الغالبة فى جميع الأزمنة والأماكن التاريخية والمناطق الجغرافية المعمورة بالبشر.

وفى رأى الكاتب، فإن السبب الأول وراء افتقاد الفكر السياسى فى العالم الإسلامى بعد الفارابى، ووراء غلبة الصورة الصوفية على ذهن كثير من المسلمين وعلى آدابهم، يرجع إلى اعتماد السلطات السياسية على الذهب والسيف، أو الترغيب والترهيب، وعلى الكتب، وإلى إيقاع الدين والفكر فى فخ الاستبداد، ويُعتبر هذا منشأ أكثر بلايا المسلمين ومصائبهم، وذلك لأن كتابهم السماوى كان قبل كل شىء يؤكد على إعمال العقل وعلى التفكير، وكان يعتبر كل شكل للسلطة يتعدى على التشريع الإلهى؛ من العلامات البارزة على الشرك والانحطاط.

إن أهم سمات سياسة الاستبداد، أنها تستحوذ على المستبد وتحجبه عن أرض الواقع، فإذا رغب أهل الفكر فى البحث حول هذا الموضوع (ماهية السياسة والاستبداد) وهم غير قادرين ولا صبورين على مخاطر الخوض فيه، فسوف ينحرف البحث الفكرى بهم إلى أودية أخرى وتتحول أدلتهم إلى أهداف غير عملية أو فارقة بالنسبة لمصير الجنس البشرى، وبالقطع سوف ينتج عن هذا إبعاد الموضوع السياسى (الأصلى) إلى وادى التصوف.

واليوم فإن الحالة الروحانية الناتجة عن القمع الاستبدادى ـ وقد عانينا منه كثيرًا ـ من أهم عوامل الاضمحلال والانحطاط التى يجب أن نجتهد بالحكمة والدراية ـ وقطعًا بالصبر ـ لعلاج وضعها الراهن، حتى تعلو شجرة التوفيق والنجاح بأرواح أحرار المسلمين إلى الآفاق العالية الرحبة، ويكون من ثمارها الحلوة ـ ليس فقط أن تصبح أماننا التاريخية حلوة ـ ولكن بعون الله تعالى، نتغلب على المُر والعلقم الذى يملأ

أمانى العالم المجهد من الاستبداد والاستعمار والظلم وكوارث الدنيا، وكذلك إنقاذ إنسان اليوم المقهور، بإذنه تعالى.

٥ ـ إلى الأعزاء الذين يقرءون ما سطرته، أتقدم بالشكر إلى الذين أرشدونى إلى الحقائق والخفايا، وأيضًا إلى أصدقائى الأعزاء الذين تجشموا العمل فى نشر هذه المحاضرات المتفرقة.

د. محمد خاتمى

هوامش المقدمة

(*) هجرى شمسى.

(١) سوف نوضح فكرة القهر كما وردت فى متن الكتاب فى شرح أفكار الفارابى.

(٢) وذلك لأن حضارة العصر العظيمة؛ أى الحضارة الإسلامية؛ كانت قد راحت فى سبات عميق، ولم تكن قادرة على أن تتدخل بمفردها فى أمور الغرب الفتى، الذى أخذ منها التطلع إلى المستقبل، وكانت قد استسلمت وضاعت قواها ولفظت رمقها إثر الرخاوة والضعف اللذين أصاباها، بالإضافة إلى الضربات القومية والطائفية فى الداخل.

(**) يقصد القهر والاستبداد.